جوارى الخمارات

الخمارات

تنصرف الجوارى إلى العمل فى نواح عديدة من مرافق الحياة تكاد لا تحصى ، كما أن أحداً من المؤرخين لم يفطن فى عصر من عصور الحضارة العربية إلى إحصاء تقريبى لهن ، رغم غلبتهن على الحرائر ، وتصدرهن فى المجالس ..

هن فى كل مكان : فى المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو المرضع أو المربية ، أو فى القصور يقمن بما أسلفنا من فنون النشاط ، وبعث المرح فى قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء وقرض الشعر أحياناً ، أو فى معارض القيانين والخمارين فيكسبن لأصحابهن المال والهدايا : مما يعوض عليهم بعض ما أنفقوه لشرائهن والعناية بلباسهن وجمالهن .

وجوارى الخمارات حريات بالعناية لكثرتهن وتعدد أجناسهن . بل الأحرى بنا التوقف قليلا أمام هذه الخمارات التى كثرت الإشارات إليها فى دواوين الشعراء المتغنين بالخمرة ، ولكنها ظلت تبدو لنا نحن المعاصرين شاحبة الوجه ، مبهمة الخطوط ،

فيتخيلها كل منا كما يشاء هواه . أو كما يتصور الخمارات المعاصرة ؛ فى حين أن تبيان هذه الناحية من الحياة قد يؤدى إلى تعديل بعض الآراء . ويخلو أمامنا صورة جديدة طريفة عن الحياة آنذاك . فمن الخطأ تخيلها مشابهة لما نراه هذه فى المدن العامرة من حيث التنسيق والتنظيم والإعلان عن نفسها ، وتصدرها فى الشوارع وتوثبها أمام الناس . ومن حيث تعبئتها بأنواع المشروبات . وجديد الفرش وشهى المقبلات ، وطرف الزينة . الواقع يسىء إلى خيالنا . ويخالف ما يمكن أن يستقر فى ذهننا بعد مطالعة الشعر الخمرى ، لأن هذه الخمارات كانت جد متواضعة . فلا تحوى إلا ما يحتاج إليه الخمار فى صنعته والشارب فى تعاطيه . وأما الكماليات فنادرة الوجود فى حانات ذلك العهد . وإذا شئنا رسم جدول بما يوجد عادة فيها نراه لا يتعدى البسط والنمارق التى يتسدد عليها الشاربون والدنان التى تحبس فيها الخمرة . والأباريق التى تفرغ فيها بعد أن توزن لهم ، والقنانى والطاسات والدوارق والكؤوس والبزل والأعواد والطنابير .

كانت هذه الأوانى متنوعة . مختلفة الأشكال والألوان باختلاف الحانات . فبعضهم يؤثر وضع الخمرة المعتقة فى خابية ، يختم فوهها بالطين ، وآخرون يعمدون إلى الزقاق المصنوعة من الجلد كقول الشاعر :

تضمنهـــا زق آزب كأنه صريع من السودان ذو شعر جعد

يربط رأسه بحبل أو خيط ، ويحل عندما تسكب منه الخمرة :

ولما حللنا رأسه من رباطـــه وفاض دماً كالمسك أو عنبر الهند

وجدناه فى بعض الزوايا كأنه آخو قرة يهتز من شدة البرد(١)

وكذلك كانت الأباريق والكؤوس مختلفة الأصناف والأنواع تصنع حيناً من الفخار أو الحديد ، وأحياناً من الفضة والذهب ، وتوشى بالرسوم والتصاوير ، فتبدو فتنة للناظرين . ولعل الحمارات التى تتردد عليها الارستقراطية كانت زاخرة بأمثال هذه كقول الشاعر :

فدعـــا بالبزال ثم وجاهـــا فجرت كالعقيق والجلنار

فى أباريق من لجين حسان كظباء سكن عرض قفار

أو كراك ذعرن من صوت صقر مسرعات شواخص الأبصار(٢)

تمثل نقوش الكؤوس مشاهد عديدة من معارك حربية ترمز إلى العهدين الفارسى والبيزنطى ، دقيقة الصنع ، تتقيد بجزئيات المرسوم من حيث تفاصيل الثياب والأزياء :

فحل بزالها فى قعر كأس محفرة الجوانب والقرار

مصورة بصورة جند كسرى وكسرى فى قرار الطهرجار

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ٢٢٣ .

وحل الجند تحت ركاب كسرى   بأعمـــدة واقبية قصار(١)

أما القناني الزجاجية فتملأ للزبن الذين يتناولون الخمرة خارج الحانة .

استخفاء الخمارين

كانت الخمارات متوارية ؛ لا تعلن عن نفسها في كثير أو قليل ؛ ولا تجرؤ على الظهور أمام الناس خوفاً من أصحاب السلطان ورجال الشرطة الذين يتعقبون أصحاب الحانات ويتتبعونهم ، ويكشفون ما استتر من أمرهم ؛ لينالوا جزاء مخالفتهم الشرع . لذلك كانت الدعارة تنحصر في الزبن الذين يترددون على الحانة من عشاق الخمرة والمجان ، بعد أن يتعارفوا أحياناً على رموز خاصة يميز بها الخمار الزبون المسالم من الطارق الغريب أو الشرطي المداهم . وكثيراً ما تكون الحانة منزلا لصاحبها ، يستر فيه أمره إذا عنفت المطاردة . فعند ما يطرق الرواد بابه ليلا يتناوم ، وقد دب الرعب في قلبه خوفاً من وشاية ، كما قال الشاعر :

تناوم خوفاً أن تكون سعاية   وعاوده بعد الرقاد وجيب

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٢١٥ .

ولما دعونا باسمه طار ذعره وأيقن أن الرحل منه خصيب(١)

وكما قال فى مقطع آخر :

لما قرعت عليه الباب أوجله وقال بين مسر الخوف والراجى

من ذا ... فقلت فتى نادته لذته .....

افتح . فقهقه من قولى وقال لقد

هيجت خوفى لأمر فيه إبهاجى(٢)

وللخمارين بعض العذر فى هذا الخوف ؛ لأن وقوعهم فى قبضة الشرطى يؤدى إلى إقفال الخمارة . أى باب رزقهم . وإلى إهراق الخمور المعتقة بالطرقات . وإلى جلد صاحبها ، وسجنه أحياناً . وأخذ ماله من مال أو متاع . هذا إذا كان ذمياً : أما إذا كان حنيفاً فإن مصيره يكون أسواء . لذلك تفنن أصحاب الخمارات أو الصاحبات فى التستر والتخفى . وكانت النساء أغلب من الرجال فى اصطناع هذه المهنة . فأجهدن أذهانهن فى ابتكار الأساليب التى ترد عنهن كيد الشرطة ، وتحجبهن عن عيونهن . من أساليبهن أنهن جعلن لأبواب منازلهن الوسيعة طاقات صغيرة فى مستوى الوجه ، يفتحنها ويوصوصن منها لمراقبة الزقاق والتعرف إلى الطارق قبل ولوجه العتبة ، حتى

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٠٥ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ١٤٥ .

إذا اطمأنن إليه فتحن الباب على مصراعيه . ورحبن به كما يليق بالصديق . وإذا خشين سعاية أو أنكرن الزى أوصدن الباب جيداً بالمزلاج . وتحصن وراءه وأنكرن أن لديهن خمراً ومتعة . إلى أن يخفين كل ما يدل على أن المنزل خمارة مموهة . أو يقضى الله أمراً كان مفعولا .

رجال الشرطة

ولعل بعض رجال الشرط عهد ذاك كانوا كبعضهم اليوم . يتشددون فى المطاردة والمراقبة إلى أن تقع الفريسة فى أيديهم فينصبون أنفسهم حكماً للحصول على أتاوة ينعمون بها . دون أن يرفعوا الأمر إلى رؤسائهم . ويستعينون بوظيفتهم لبلوغ مآربهم فى الشراب ومن الطريف أن نشير إلى حانة شهلاء اليهودية المشهورة بأناقة ملبسها ونظافة كؤوسها ، ورقة حديثها . كان أحد الشعراء متيماً بها ، ألف التردد عليها والتودد إليها . يشرب هناك ويقول فى كل ذلك شعراً . فيسعده التوفيق حيناً ، ويخطئه أحياناً . وقد نزل بشهلاء فى أحد الأمسية . وأقفل الباب وراءه . فإذا بدق عليه . فدنا مع صاحبته من الكوة الصغيرة وفتحاها . ونظرا إلى الخارج فأبصرا شرطياً . فى وسعنا أن نتمثل ماأصابهما من الجزع . فالحد أقل ما ينتظر الشاعر المسلم . والخراب

أيسر ما يصيب شهلاء الذمية . ولكن الشرطى كان مسالماً . فهو لا يود إزعاجهما . بل يريد أن يسقى خمراً ليأمنا شره . ويلح فى ذلك ، والشاعر وصاحبته يترددان متخوفين من غدره إذا استقر داخل الحمارة ، حتى يغطنا إلى الثقب الذى فى الباب ، فيضعان له فيه أنبوبة قصب ويصبان فيه النبيذ من داخل ، والشرطى يشرب من خارج . فأفرخ روع الصديقين وروى الشرطى ظمأه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . وقد قال الشاعر فى ذلك شعراً ، فكان مما قاله :

سأل الشرطى أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا فاسألوا الشرطى ماهذا الغضب(١)

فالحمارة هى إذن فى أغلب الأحيان غرفة أو بعض غرفة ، مجهزة بالأنماط ، وقد طرحت الزقاق فى زاوية منها ، أو تخبأ فى مكان لا تقع عليه العيون يقعد الشرب على البسط ، ويأخذون بأيديهم الكؤوس وهكذا لا ترى أثراً للموائد والكراسى ، ولا يقدم لهم شىء من المشهيات إلا نادراً . وأشهر النقول التى يتناولونها بعد ارتشاف الكؤوس ما عرف بنقل أبى نواس . فقد سأل أحد الخلفاء بعضهم : ما أخف

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩١ .

النقل على النبيذ ؟ فقال له : نقل ابى نواس . فقال : ما هو ؟ فأنشده :

ما لى فى الناس كلهم مثل مائى خمر ونقلى القبل[١]

يمر الساقى ، وهو غالباً جارية بارعة الجمال بالشرب ، يحمل بيده إبريقاً معدنياً له عنق دقيقة ، فيملأ الكؤوس الفارغة حيناً بعد آخر . ولم يكن أصحاب الخمارات يتناولون من الزبن ثمن كل قدح على حدة ، وانما يبيعونهم إبريقاً مملوءاً يتسلمه النديم ، حتى إذا فرغ الأول قبضوا ثمن الثانى واترعوه خمراً ، وعهدوا به إلى النديم ليتابع مهمته فى سقيهم .

الخمارات الريفية

تقع بعض الخمارات المشهورة خارج المدن ، فى المواضع النزهة المحفوفه بالكروم والأشجار والمعاصر ، فيقصدها عشاق الخمرة واللهو ويقيمون فيها أياماً . ولعل هذه كانت وسيعة ، تتألف أحياناً من غرف عديدة . يعمد فيها الشرب إلى الراحة ، وإلى النوم غراراً ، ليعودوا وقد جددوا نشاطهم إلى احتساء الخمرة . ومن هذه الخمارات الطلقة النزهة تلك التى نزلها أبو نواس عند ما أزمع على الحج ، وهى ما بين الكوفة والقادسية . فلما

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٤ .

ذاق خمرها تشهى متعتها ، ونازعته نفسة إلى الإقامة فيها والتسويف فى أمر دينه فى سبيل دنياه ، فتحول عن عزمه واستقر فيها يشرب . وقد اطمأن إلى ملاعب شبابه . وما زال هناك يحتسى الكؤوس حتى وفد أوائل الحاج عائداً من المناسك ، فكر معهم راجعاً إلى بغداد وكأنه كان منهم .

أكثر القرى شهرة بمثل هذه الحانات عانة وقطربل ، وفيها يقول أبو نواس :

قطربل مربعى ولى بقرب الكوخ
مصيف وأمى العنب (١)

وكذلك قنة الفرك ، وكلواذ والصالحية وطيرناباذا والكرخ التى ورد ذكرها فى البيت السابق . ولعل الشاعر أشار إلى واحدة من هذه الخمارات الريفية فى قوله :

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت نمارقه فى ظل كرم معرش خضد
قد لحقتك الغصون أردية فيومك الغض بالنعيم ندى(٢)

كانت هذه الحانات على اختلاف أنواعها ومواقعها تدر على أصحابها المال الوفير ، مما يساعدهم على البذل فى رشوة أصحاب

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٠١ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ١٦٤ .

النفوذ المسؤولين وكف الأذى عنهم ؛ فيظهر بعضهم أمره عياناً دون وجل . ويجود بناء حانته ويسيجها أو يؤزرها — كما يقال — ويسقفها بالساج . ويقيمها بجانب بستان نزه يملأ الأنظار بهجة ومتعة ؛ حتى رأينا خادم المتوكل ينصرف إلى مثل هذه التجارة الرابحة . بعد أن تبين فيها الوسيلة الفضلى لاستدرار الأموال ، فاتخذ مثل هذه الحانة الأنيقة الظاهرة مقراً للارستقراطيين من الشاربين والمجان وأصحاب الكيف من الأثرياء والقواد وأبناء الأسر المشهورة ، فلا يسمح لأحد من العامة الوضعاء بالدخول إليها . وحسن فيها أدوات الشراب ، واتخذ لها خماراً يهودياً لبقاً حاذقاً ، وحال بنفوذه وماله دون عيون الشرطة(١)

خمارتا الواثق

مما لا شك فيه أن كثيرين من كبار القوم قد أغرموا بمثل هذه الخمارات ، فكانوا يتوافدون عليها ، وينعمون بما فيها ، حتى تعداهم هذا الغرام إلى بعض الخلفاء العباسيين الذين حال مقامهم دون ترددهم على الحانات ، فأنشأوا مثيلات لها فى حدائقهم ، وخلقوا الجو المرح الذى يطيف بها . كما حدث للواثق الذى كان يحب الحانات ، وما قيل فيها ، وما غنى به فى

---

(١) مسالك الأبصار ص ٣٩٥ .

ذكرها فعقد حانتين : إحداهما فى دار الحرم ، والأخرى على الشط ببغداد . وأمر أن يختار له خمار نظيف من أهل قطربل . فأتى بنصرانى له ابنان نظيفان مليحان ، وابنتان على شىء كثير من الجمال . فجعلهم الواثق فى الحانتين . وضم إليهم خدماً وغلماناً وجوارى روميات . وأخدم النساء حانة الحرم . والرجال حانة الشط . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما فرش الخلافة ، وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأوانى المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه . فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنيين ، ولم يدع أحداً يصلح من ضراب الطنابير إلا أحضره . وتوافد الشرب ، وبرز الخمار مع أولاده وعليهم الأقبية المسهمة ، وفى أوساطهم الزنانير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الأطباق . وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب . فأقيمت بإزاء المجلس الذى كان فيه جالساً . وبزلت كما يفعل فى الحانات ، وجعل يؤتى بالنماذج فيذوقها ، ويعرض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهيه ، ويجىء إلى الخمار ويكتال منه بمكيال فى إنائه ، كما يفعل فى الحانات ، ويعود إلى موضعه فيجلس فيه . وأمر

الخليفة أن يجعل على رؤوس الحضور أكاليل الآس ، وما أشبهه من الرياحين . وشرب شراباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار . ولزوجته بألف أخرى ، ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار . ولم يبرح المجلس أحد من الشرب إلا بجائزة سنيـــة .(١)

شروط الكمال

لعلنا فطنا إلى أن هذه الأكاليل من الآس والياسمين والغار ، وما أشبهها من أنواع الرياحين ما هي إلا بقية من وثنية قديمة العهد ، يعتقد أنها تذهب بالخمار ، وتساعد حاملها على استساغة الشراب . وقد بدا لنا من المثال الذى عرضناه باقتضاب أن الخمرة لا تكتمل شروطها إلا إذا كانت بإشراف ذمى نصرانى أو يهودى بنوع خاص ، وأن تدور بها القيان على الشاربين . ولعلنا فطنا أيضاً إلى ما يرمز إليه الزنار الذى تمنطق به الرجل وزوجته من أنهما حاذقان ماهران بفنون الشراب لأنهما ذميان . فالشاربون لا يستطيعون القهوة التى تسكبها يد مسلمة ، وإنما لها كاهنات خبيرات بحذق الطقوس الخمرية ويتوارثنها . أما عن جدة . فالخمار اليهودى أو النصرانى من شروط الكمال فى الحانات ، لأن كلا منهما قد ألف مهنته وأجادها ، وعرف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٣ — ٣٩٤.

أسرار الخمرة وأنواعها وطعومها وشمومها . وأدرك أذواق الشاربين ، فتفنن فى إرضائهم وتأمين سبل الراحة لهم . وليس يعنى قولنا أن المسلمين لم يحترفوا هذه المهنة بل يعنى أن الذميين من يهود ونصارى كانوا أغلب من انصرف إلى هذه التجارة ؛ فأبدعوا فيها . واطمأنت إليهم الزبن . ولم تخل حياة الخمارين من تحاسد طبيعى بين يهود ونصارى ، بل لعلهم أعلنوا الخصومة ، وغالوا فى التذام والتراشق بالفريات والتهم ؛ وكل منهم ينتقص من فضل عدوه ، ويغالى فى تقريظ نفسه .

كان هؤلاء الخمارون يتناسون أسماءهم المركبة أحيانا من أعلام ألسنة المخارج ، ويطلقون على أنفسهم ألقاباً خفيفة رشيقة على ثقيلة الشرب دون عناء . ونحن واجدون عند الشعراء الخمريين تجارة من الإشارات إلى هؤلاء الرجال والنسوة المنصرفين إلى كثيراً الخمرة ، فيقول أحدهم :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم
إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما
ظننا به خيراً فظن بنـــا شرا
فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟
فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا

ولكن يهودى يحبك ظاهراً
ويضمر فى المكنون منه لك الغدرا
فقلت له : ما الاسم ؟ قال سموأل
ولكنى أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتنى كنية عربية
ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخراً
ولكنها خفت وقلت حروفها
وليست كأخرى إنما جعلت وقرا(١)

ولعل خمارنا هذا يعرض بالألقاب التى كانت تطلق على الخمارين النصارى، كذلك الذى جاء عنه :

فقلت له : ما الاسم حييت ؟ قال لى
دعانى أبى سابا ولقبنى شمرا(٢)

زينة الحانات

يختار أصحاب الحانات غالباً قياناً مكتملات الجمال والأدب والذوق ، ناعمات بكثير من الميزات التى تجعلهن مقربات

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٣ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٢١٧ .

إلى أذواق الأدباء وغير الأدباء من الشاربين ، كتلك الساقية التى يقول فيها الشاعر :

فى كف ساقية ناهيك ساقيـــة
فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى معاينـــة
بالكشح محترف بالكشح مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بهـــا
وأفعمت فى تمام الجسم والعصب
تمت فلم ير إنسان لها شبهـــاً
فيمن برا الله من عجم ومن عرب[1]

كانت جوارى الحانات متفننات فى إظهار ملاحتهن ، يتخذن أحياناً أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر ، ويعقربن سوالفهن على مستدار الأذن ، ويجعلن فى أيديهن الدمالج ، وفى أرجلهن الخلاخيل[2] ويحجبن أجسامهن بالشفيف من النسيج ، وينصرفن إلى سكب الخمرة فى الأقداح ، أو مزجها بالماء ، وبالغناء والرقص ، ويتقيدن برغبات الشاربين فينشدن ما يخطر لهم من الأبيات على ألحان معدة شائعة .

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٠٢
(٢) ديوان أبى نواس ص ١٣٢

وكثيراً ما كان الشرب يتقارضون الشعر مديحاً وغزلا ووصفاً ، ثم يطرحون على القيان ما انتهوا إليه ، فيتغنين به . وهكذا تتعاون قريحة الشعراء ، وحناجر القيان ، ودبيب الخمرة فى خلق جو زاخر بالطرب والأدب . وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط فيها ألحان المغنيات المترافقات بدق الطنابير ، وعزف المزامير ، وصخب السكارى ، وكل منهم يلح فى طلب صوت معين ، والجوارى متأنيات حريصات على إرضاء الجميع :

وصهباء من حانوت ريمان قد غدا
على ولم ينظر بها الشرق صابح
تبصر عنها اليوم كأس رويـــة
وبرد العشايا والقيـــان الصوادح
وبتنا على الأنماط والبيض كالدمى
تضئ لنا لباتهن المصابح[1]

خداع الجوارى

القيان اللواتى عرفهن العرب لا يختلفن عن شبيهاتهن فى جميع أصقاع العالم قديمه وحديثه . يتوددن إلى صاحب المال الوفير ، ويبدين غوايتهن ، ويعمدن إلى جميع الأساليب

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٨٨ .

المغرية لإيقاع من يردنه فى حبالهن . وقد تبين للجاحظ ، وهو المحلل المبدع ، أن القينة تكاد لا تخلص فى عشقها ، لأنها مجبولة على نصب الأشراك للمرابطين عندها ، ليقعوا فى أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست أن سحرها بدأ أثره فى نفسه تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها . ثم يبدأ عهد ثان بينهما ، فتكاتبه وتشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها ، وأنه لا يفارق ضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه . فإذا تلطف فأجابها ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته . وعندئذ يبدأ عهد ثالث بينهما ، تظهر فيه الغيرة عليه ، وتنسب إليه النظر إلى صواحبها ، وتسقيه أنصاف أقداحها ، وتزوده عند انصرافه خصلة من شعرها ، وتهدى إليه فى الأعياد الهدايا المناسبة ، وتنقش على خاتمها اسمه ، وتزعم أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تهنأ بالطعام وجداً به ، وأنها جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه .

وربما عمدت إلى مثل هذه الحيل . وتلبست مثل هذه العواطف . ورددت مثل هذه الأقوال والأعمال . وهى تزعم كل ذلك لثلاثة أو أربعة من المترددين عليها . فتبكى لواحد بعين . وتضحك لرفيقه بالأخرى . وتوهم كلا منهم أنها له دون الآخر . وأن الذى يظهر خلاف ضميرها . وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة . تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم[1]

تثابر على هذا النهج من الخداع إلى أن تنتزع منه ما معه من المال . فتطرحه خارجاً . وقد فازت منه بما أرادت ، وفاز منها بالهم والنصب . وقد أوجز أحد الشعراء هذه الحالة بأبيات قال فيها :

إذا رأين القيان أحمق ذا مال يقلبن نحوه الحدقا
وبالتغنى وبالتدلل يسلبن فؤاداً بحبه علقا
حتى إذا ما سلخن جلدته سلخاً رفيقاً وبدد الورقا
قلن ادخلوا . ذا الطوير قد طرح الريش . وشدوا من دونه الغلقا

---

(١) رسالة القيان ص ٦٩ — ٧٢ .

فبـــتن يرعـــين فى دراهمـــه
وبات يرعى الهموم والأرقا(١)

لعلنا واجدون لهؤلاء القيان بعض العذر فيما يفعلنه ، وما يقلنه ، فسادتهن يربونهن على هذه الأخلاق اكتساباً للمال والهدايا ، وينشأن فى بيئة فاسدة الخلق والعادات ، يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على القلوب ، ويتعلمن الفنون التى تنفعهن فى حياتهن المقبلة فى بيوت القيانين والحانات ومنازل مواليهن . فمن الصعوبة بمكان أن تسلم القينة من الفتنة ، وأن تتخلق بالجميل من الخصال والصدق والصراحة . فهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها على لهو الحديث بين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة ، إذا ضرب بعضه ببعض بلغ عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق والمجون . وهى لا تنفك دراسة

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٠ .

لصناعتها . مكبة عليها . تأخذ من المطارحين الذين يغالون فى إفسادها . وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها لأنها إن جففتها تفلتت ،وإن أهملتها نقصت ،وإن لم تستفد منها وقفت .

---

(١) رسالة القيان ص ٧٢—٧٣ .